الفصل الثاني

في السياسة والاقتصاد

لكي يبدو دفاعنا عن مقولة الحوار بين الحضارات متماسكاً، كان لا بد من إثبات وتأكيد أن الصدامات التي شهدها العالم قديماً وفي العصر الحديث تقودها وتوجهها مصالح القوى المنخرطة في هذه الصدامات أو القوى الصادمة على الأقل، باعتبار أن المصدومة ربما تكون في حالة دفاع عن النفس. ولا بد من الإشارة ثانية أن هذا الكلام لكي يحافظ على معقوليته لا بد أن يقر بالنسبية في الأحكام.

ولكي يكون البحث أكثر مصداقية، فإنه يحتاج إلى تأصيل الرأي في قنوات الحياة، وجوانب النشاط الإنساني، بحيث يكون الكلام مقنعاً بالأدلة التاريخية والواقعية.

إن البحث التاريخي والواقعي يقدم مصداقية الحوار بين المجموعات البشرية، الصانعة للحضارات، بالتالي هو ينفي أن تكون علاقة الصدام ـ مع وجودها ـ علاقة صحيحة ومفروضة ووحيدة بين أية مجموعتين أو كتلتين حضاريتين.

إن علاقة الحوار هي الأساس سابقاً وحاضراً ومستقبلاً، وحصول الصدام هو نتاج احتكاك أو حوار يظهر أن هناك تنافساً على مصلحة، أو أطماعاً ظهر أنها يمكن أن تقود إلى فوائد لطرف يستشعر قوة، وأن لا سبيل إلى تحقيقها بغير المصادمة. وربما يكون الصدام لإرهاب العالم وإقناعه أن لا جدوى من مقاومة القوى العظمى، وعليه أن يسلم ، كما نرى في أفعال الولايات المتحدة في عصرنا.

إن العلاقة بين المجتمعات الكونية تتجذر على كافة المستويات وفي كافة الحقول كما بينا، حيث أن أي منتج حضاري ـ بالمعنى الواسع للحضارة ـ يصعب

احتكاره طويلاً، فيجد طريقه إلى الشعوب الأخرى، غير التي أنتجته فيدخل في حراكها بنيوياً وحسب الحقل الذي ينتمي إليه، فإن كان المنتج فكرياً ثقافياً، أصبح جزءاً من الفكر والثقافة الإنسانية حيث يثبت جدارته، وإن كان ينتمي إلى حقل المادة، فالملاحظ أن المنتجات المادية، تنتقل بين الشعوب في كافة أنحاء المعمورة. إذن، فالحوار هو أصل العلاقة بين الحضارات وليس الصدام، حتى وإن بدا قدراً لا فكاك منه أحياناً لتضارب المصالح.

وباعتبار أن السياسة حقل يدخل فيه غيره من حقول، وأن الاقتصاد لا يفارق السياسة بحيث يقع في صلبها، ربما بشكل أكثر حميمية، فإننا نبدأ بحقل السياسة والاقتصاد، ودور الحوار في هذا الحقل.

السياسة في حياة الشعوب:

تأخذ السياسة على عاتقها مسؤولية صناعة الروابط والعلاقات بين الأمم والشعوب في كافة المجالات، فهي علم وفن إدارة العلاقات البشرية بين الكتل والأفراد. ولم تتأخر الشعوب كثيراً عن بعضها في نقل تجارب السلطة، فما إن وجدت سلطة ما عند شعب ما، حتى انتقلت عدوى هذه التجربة إلى غيره من الشعوب، فتلونت بلون حاجاته وظروفه، لكن يبقى المشترك العام، الذي نقلته الشعوب عن بعضها هو الإقرار بوجود السلطة وبالخضوع لها.

وقد أخذت السلط تمسك بقنوات الحياة العامة بالتدريج، حتى أصبحت تتحكم بتوجيه حياة الناس مادياً ومعنوياً، وتنوعت علاقات هذه السلط بشعوبها بين الشدة واللين، بين الديمقراطية والدكتاتورية، كما تنوعت علاقاتها مع الشعوب الأخرى.

ولقد ثبت أن الشعوب تتأثر ببعضها وتنسخ تجارب بعضها في المجال السياسي ابتداء بالسلطة القبلية إلى الإمبراطورية قديماً، ومن السلطة المركزية والتوتاليتارية إلى الديمقراطية الليبرالية حديثاً.

كما تأخذ الدول عن بعضها التجارب الجزئية، التي تنظم قطاعاً أو شأناً جزئياً من شؤون الحياة، فقد كان للديمقراطية اليونانية أثره في الدولة الرومانية

obeikandi.com

التي ورثتها، بحيث ظهر في أسلوب اختيار الحكام وقيادات الجيش أو رؤساء الوحدات العسكرية.(1).

وفي بلادنا العربية، كانت الحياة السياسية قبل الإسلام تعاني من فقر شديد، ربما كان ناتجاً عن البداوة كما عن ضعف التواصل مع الشعوب الأخرى على المستوى السياسي، لعدم وجود دولة مركزية تأخذ على عاتقها تطوير الحياة السياسية. لكن ما إن تمكن الإسلام واستقرت دولته حتى برزت الحاجة إلى التجدد، مما دفع إلى الإفادة من تجارب الشعوب.

يتحدث التاريخ عن الحاجة الماسة إلى تنظيم شؤون الدولة، ولم يكن لدى العرب الخبرة الكافية في هذا المجال، فتم الأخذ بمشورة من أشار على الخليفة عمر أن ينظم الدواوين التي تأخذ على عاتقها ضبط الأعمال الإدارية للدولة كالمالية والبريد والجند، كما عهدها الفرس أيام دولتهم الإمبراطورية التي تم الإطلاع على نظمها، وقد أخذ عمر بهذا الاقتراح، مما يظهر أن الإسلام الذي استطاع أن يقوض دولة الفرس ويقلب أوضاعهم رأساً على عقب لشدة التأثيرات الإسلامية على شؤون حياتهم، لم ينج من التأثر بما لدى هؤلاء فكانت آثارهم في علوم الإدارة وفنون وآداب الحياة ذات أثر كبير كما تتحدث عن ذلك مصادرة تاريخ المرحلة.

إن هذا الشاهد الذي يبرز تأثر العرب بالحضارة الفارسية، منذ أيام الرسول في قضية حفر الخندق حول المدينة دفاعاً عنها، أخذاً بمشورة سلمان الفارسي، مروراً بتدوين الدواوين، وأبهة الملك الفارسي والروماني كما بدت في دار الإمارة بدمشق أيام ولاية معاوية عليها ثم في أيام خلافته، وفي آداب الحياة السياسية العباسية، يعتبر شاهداً واضحاً على حوار جرى بين حضارتين. وإذا كان الفرس قد تأثروا بالإسلام باعتباره الدين الجديد ودين المتغلبين وبالعرب شأن المغلوب بالغالب، فإن أثر الفرس على العرب الغالبين كان واضحاً جلياً، بنتيجة حوار حضارتين.

الاقتصاد يدشن الحوار:

كان اهتمام الإنسان بملء معدته الفارغة سابقاً على اهتمامه بشكل الحكم الذي يخضع له أو بطبيعة الإله الذي يعبده، وقد جاءت هذه في مراحل تالية من سعيه لتأمين حياته، حيث كانت الأهمية الأولى للحفاظ على هذه الحياة.

ولقد أظهر اختلاف الإنسان عن بقية المخلوقات تنوع اهتماماته بالتالي تنوع حاجاته مما لم يكن قادراً على تأمينه بمفرده، وقد بدت حاجته إلى آخرين يساعدونه في تأمين ما يريد وما يحتاج مبكرة، وهذا ما وضع قواعد لتبادل الحاجات وللتنوع في إنتاجها، مما نشأ عنه الأسس الاقتصادية الأولى، التي كانت نشاطاً فردياً أولاً، ثم أصبحت شأناً عاماً من مهمات أنظمة الحكم ومؤسساته، بعد أن زاد تعداد البشر وتعقدت شؤون حياتهم وزادت حاجاتهم، حيث أصبح للإنتاج والتبادل هيئات ترعاها على مستوى الأقطار كما على المستوى الدولي.

وقد كان الإنسان يوغل بعيداً في البحث عن حاجاته، ويبتكر لذلك الأساليب ويعممها، فقد استخدم قدراته على حمل الأحمال ثم استخدم الدواب، ثم اخترع العجلات التي تجرها الدواب، كما اخترع السفن التي تنقله بعيداً أو تجتاز به العوائق المائية بحثاً عن حاجات لا تنتهي.

لقد تم الحديث عن آثار للفينيقيين وسفنهم وجدت على السواحل البريطانية، وقد كانت مستعمراتهم ومحطاتهم التجارية قد توزعت على أطراف المتوسط، مما يدل على اتساع النشاط التجاري لهذا الشعب وتواصله مع غيره من الشعوب، مما يستلزم حواراً يعرف من خلاله كل طرف الطرف الآخر بشكل جيد، ويتم التعرف على أهم ما يوفره كل طرف للآخر.

ومن الآثار القديمة المعروفة على المستوى الاقتصادي، تلك المحطات على شواطئ المتوسط، التي سميت موانئ أو مرافئ، تنقل البضائع منها وإليها، كالإسكندرية و صيدا وبيروت وقرطاج وروما والمرافئ اليونانية وغيرها، وهذه كانت مراكز يلتقي فيها أبناء الحضارات فيتحاورون وينقلون أخبار بعضهم وتجارب بعضهم، وحاجات ونواقص بعضهم مثلما ينقلون أخبار البضائع المتوفرة لديهم.

ومعروف ما للتجارة من دور في تحسين الحوار وترقيق الحواشي وتهذيب الخطاب، يقول تيري إيجلتون: ((فإن التهذيب يسير مع التجارة جنباً إلى جنب، ذلك

أن التجارة هي ما يحطم الغلظة الريفية، ويقحم البشر في علاقة معقدة، وبذا يصقل ما لديهم من نتوءات حادة وحواف قاطعة)) (2).

إن تحقيق شخصية الجنتلمان الإنكليزي تقتضي الانخراط في تجارب تجاريه تساهم في تهذيب السلوك واكتساب الكياسة، وهذا يؤسس لحوار أكثر فاعلية.

ومن الإشارات إلى دور الاقتصاد في تلاقي الحضارات وحوارها، الحديث عما كان يسمى بـ (طريق الحرير) الذي يربط بين الصين وأوربا، شاملاً لمعظم أجزاء المعمورة أيامذاك، وقد كانت تنقل عبره البضائع ومنتجات الشعوب المادية، كما تنقل الخبرات والابتكارات والفنون والآداب بين الشعوب التي كانت ترتبط بهذه الطريق وتجد بضائعها الطريق إلى العالم ـ تصديراً أو استيراداً ـ من خلالها. فقد نقل العالم عن الصين صناعة الورق والبارود وتربية دودة الحرير عبر العلاقة بهذه الطريق، وأي حوار بين الحضارات أبلغ من هذا؟!

ينقل د.أمين اسبر عن الياباني طوشيودوكو: ((إن اليابان .... كانت المستفيد الأكبر من الحضارة العربية منذ عهد الإمبراطورية العربية القديمة التي ازدهرت في ديار الإسلام)) ويقر أن نتاج الحضارة العربية الإسلامية انتقل إلى اليابان خلال طريق الحرير إضافة إلى طرق أخرى(3).

وفي المشرق العربي يحدثنا القرآن الكريم عن رحلة الشتاء والصيف وعن ((إيلاف قريش))حيث كانت قريش (القبيلة التاجرة)، ترتب علاقاتها مع القبائل والشعوب الأخرى بحيث تتأمن تجارتها التي هي مصدر معاشها، فكانت تعقد اتفاقات حماية القوافل ومرافقتها وتقديم الخدمات لها مقابل خدمات أو جعل ما. وكانت هذه الاتفاقات شمالاً باتجاه بلاد الشام فبلاد الروم حيث كانت تجد التجارة نهايتها، وجنوباً أيضاً باتجاه اليمن وصولاً على ما كان يأتي من بلاد الهند من تجارة، مع كل العلاقات الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تحصل، إضافة إلى تعرف كل شعب على ثقافة الشعوب الأخرى من خلال منتجاتها والتعاطي مع تجارتها.

هذه العلاقات الاقتصادية الأولى، ربطت الشعوب والأمم ببعضها، وعرفتها على بعضها، وضعت الأواصر والعلاقات، وهذه هي التي سمحت بأن يهاجر المسلمون الأوائل إلى

الحبشة، وقد عمل على زيادة الروابط والعلاقات الاقتصادية بعد أن أصبحت الإمبراطورية الإسلامية أبرز مراكز المعمورة في كل المجالات حيث أدى تشعب الحياة وتشابكها وتعقيدها إلى تشعب وتشابك وتعقيد شؤونها الاقتصادية.

صدامات العالم القديم تصنع الحوار:

كانت الحضارات تنقل إلى بعضها خبراتها التي حصلتها، وكان يتم التعرف إلى هذه من خلال العلاقات التجارية، أو الاحتكاكات العسكرية، فكانت الخبرة المتحصلة تتعمم وتصبح ملكاً للبشرية وإرثاً تاريخياً يتم نقله والحفاظ عليه، ولم يكن ينسخ إلا بعد أن يتم ابتكار الأفضل.

وإذا كان النشاط الاقتصادي، يؤمن شكلاً من أشكال الحوار بين الحضارات والشعوب، فإن الحوارات لم تكن حكراً على العلاقات الاقتصادية، بل لقد استطاعت الحضارات أن تبتكر أشكال الحوار وتستغل الظروف له، من خلال نقيضه وهو الصدام. فكثيرة هي الصدامات التي تمخضت عن علاقات حضارية امتدت وقدمت الخير والفائدة لمجموع البشر، وبرهنت أن الإنسان لا يقف عاجزاً عن التواصل والحوار مع الإنسان الآخر في أحلك الظروف.

من الشواهد الأكثر بروزاً على ذلك كما أشرنا، غزو الاسكندر المقدوني للشرق واجتياحه لشعوب وحضارات، وقد انتهى الصدام وانتهت المعارك الحربية بموت الاسكندر، لكن ثقافة وحضارة قامت بالتلاقح بين اليونان الغازين وثقافة المنطقة، فبرزت مراكز حضارية كالإسكندرية وإنطاكية، كانت أنشط مراكز الفكر والثقافة والحضارة في العالم آنذاك، وكانت الهلّنستية ثمرة من ثمار صدام الحضارات، يقول علي محمد اسبر: ((بعد سيطرة جيوش الاسكندر المقدوني على بلاد الشرق في القرن الرابع قبل الميلاد، حدث تمازج بين الحضارة الهلّينية والحضارة الشرقية أدى إلى ظهور فلسفة تجمع بين ما هو شرقي وما هو يوناني وقد اعتاد المؤرخون أن يطلقوا على هذه الفلسفة اسم الفلسفة الهلّنستية التي تبدأ مع الأبيقورية وتنتهي مع الافلاطونية المحدثة)) (4).

وقد قدمت هذه الفلسفة مجموعة من كبار الفلاسفة من سوريين ومصريين من بينهم.

زينون الرواقي 336 - 264ق.م، سوري انتقل من قبرس إلى أثينا مفضلاً الفلسفة على التجارة.

نومونيوس، سوري من القرن الثالث الميلادي.

ساكاس 175 -250 مصري ولد في الإسكندرية.

أفلوطين الفيلسوف الشهير 205 - 270 مصري الجنسية.

فور فور يوس 233 – 305 سوري الجنسية.

بامبليخوس 270 - 320 سوري أيضاً(5).

هذه الثقافة الهلّنستية، عم نشاطها المنطقة وأبقت آثارها كمكتبة الاسكندرية التي دمرت قديماً. (والآن أعيد إحياؤها على أحدث الطرز).

ثم لا ننس العلاقة التي كانت بين مصر والحضارة الرومانية والتي لا يزال العالم يذكرها من خلال حكاية أنطونيو وكليوباترة، التي لا تزال تلهب خيال الشعراء والسينمائيين وغيرهم.

وعلاقة روما لم تكن مع مصر فقط بل كانت مع بلاد الشام، ولا تزال الآثار المتبقية كشواهد على هذه الحقبة، تدل على حالة التمازج الحضاري واستقرار الرومان لفترات سمحت لهم بناء كل هذه القلاع والحصون والمدن في بلادنا، وإذا كان صلب السيد المسيح دليلاً على فعلهم السلبي فإن آثار بعلبك وبصرى وتدمر وشهبا ومواقع كثيرة غيرها، شواهد على المستوى الحضاري الذي عاشته المنطقة في ظلهم قبل أن يتم طردهم من قبل الدولة الإسلامية الناهضة، وهذه الشواهد الحضارية دليل على تفاعل الحضارة الرومانية مع حضارة أبناء المنطقة، وإلا لما كانوا قد استطاعوا ترك هذه الشواهد الشامخة.

قبل ذلك كان نبوخذ نصر هو القائد الثاني من قادة حضارة ما بين النهرين يقود جيشاً لغزو فلسطين، حيث تم سبي بني إسرائيل للمرة الثانية إلى بابل عام 527 ق.م ولا ننس أن التوراة كتبت هناك في بابل على يد أحبار اليهود، وآثار ثقافة ما بين النهرين واضحة فيها، كقصة الطوفان، والتشابه بين حكاية سرجون

obeikandl.com

الأكادي وحكاية الطفل موسى. وهي من أدلة الحوار الذي يتوج صداماً مدمراً بين كتلتين حضاريتين.

واللافت في هذه الحوارات، أنها كانت تجري على جوانب الفعل السياسي العسكري، دون تخطيط أو تدخل القادة السياسيين الذين (ربما) لم يكونوا يخططون لها أو يقصدونها، مما يشير إلى أن الحضارات قادرة على ابتكار حوارها بعيداً عن السلط والأوامرية.

الأكثر بروزاً في هذا المجال هو الفتوح الإسلامية، وما نتج عنها لاحقاً من علاقات بلغت مستوى أفقياً وشاقولياً، حداً لا تمحوه الأيام أو إرادات الساسة. هذه الحروب كانت غزواً وصدماً عسكرياً، لا تخفى حقيقته مهما حاولنا تمويهها بالمبادئ وبحب نشر العقيدة الإسلامية الجديدة (6).

وقد فتحت البلدان ليس للدين الجديد فقط، بل لتبادل القيم الحضارية والثقافية بين الشعوب. وهي لم تكن بعيدة عن الكثير من السلبيات التي ترافق مثل هذه الفعاليات العسكرية، يقول إدريس هاني: ((وأنا هنا أعترف بأن ما وقع في التاريخ العربي والإسلامي هو ما كان وراء هذه الصورة النمطية التي لا يزال يحملها الغرب عنا. لا ننسى أن حركة الفتوح كانت في آخرها فتوح خراج.. لا أكاد أبرئ ما سمي بالفتح الأموي أو العباسي أو التركي... ولا أميز إرادة الغزو الأموية - وإن تلبست بالشعار الإسلامي عن فتوحات ((كاليغولا)) أو ((نبوخذنصر)) .. لنكن صرحاء ... تلك هي الحقائق المؤسسة للصورة النمطية للإسلام في الغرب)) (7).

ومن أمثلة الأثر الحضاري للفتوح دخول اللغة العربية إلى البلدان المفتوحة باعتبارها لغة القرآن والعبادة، ودخلت الكلمات العربية إلى لغات الشعوب بنسب تقترب من أربعين في المائة حسب بعض التقديرات، في بعض اللغات، كما أصبحت بعض هذه اللغات تكتب بالخط العربي كالأوردية والفارسية والتركية، وإذا كانت تركيا قد حولت كتابتها إلى الخط اللاتيني تمشياً مع سياسة أتاتورك، فإنها غير قادرة على إزالة تأثير العربية من وسطها اللغوي، واستقراء أسماء الأشخاص يدل على مستوى التأثر بالثقافة العربية.

إن احتكاكات كثيرة سلبية وإيجابية نشأت بين الحضارات والشعوب المنضوية تحت راية الإسلام، نتج عنها حراك اجتماعي وثقافي كالشعوبية التي سنمر عليها، وكانتقال آداب الحياة العامة في الطعام واللباس والعلاقات الاجتماعية إلى الثقافة العربية والمجتمع العربي من الفارسية ومن غيرها، وكالتأثر بالآداب السلطانية في الحيز السياسي حيث عمل المفكرون العرب على نقل هذه الأداب لصالح الحكام، وأصبح الفكر السياسي الفارسي والهلنستي من المرجعيات التي لم يكن يوجد لها شبيه في العربية(8).

لا ننس أيضاً، أن الأخلاق السياسية العربية قد تأثرت بالفارسية واليونانية ابتداء بعهد أزدشير كما تم نقله منذ ترجمة ابن المقفع له ولكثير من الآداب عن القارسية مثل كليلة ودمنة، أو كتاباته مثل رسالة الصحابة والأدب الصغير والأدب الكبير. وقد كان لهذه الترجمات والكتابات أثر بعيد على الحياة الاجتماعية والفكرية والسياسية العربية، خاصة في تأصيل مفهوم الطاعة الفارسي، وعلاقة الدين بالسلطان كما رسمت في عهد أزدشير(9).

ومن الآثار التي تدل على دور الثقافة والحضارة اليونانية في الثقافة العربية، كتاب ((العهود اليونانية)) لأحمد بن يوسف بن ابراهيم، الذي يقول عنه د. كمال عبد اللطيف إنه مستخرج من كتاب السياسة لأفلاطون، وغير ذلك كثير مما تأثر به العرب على إثر الاحتكاك الصدامي أو العلمي الحضاري، كالتأثر بكتاب أرسطو عن السياسة (10).

لقد استمرت الصدامات بين الشعوب تاريخياً، وكانت تقودها المصالح، لكن هذه الصدامات، كما ضمنت المصالح وصنعت المآسي والدمار، فكذلك أوجدت روابط بين الأمم، وهذه الروابط الحضارية الثقافية بقيت التعويض الحقيقي عن الدمار والخراب وعن العداوات والتناحر، فالغزوات الصليبية بما جلبته من دمار إلى الشرق العربي، انتهت آثارها التدميرية، وبقيت آثار حضارتها في القلاع والحصون التي يلجأ إليها الناس للتعرف على أعمال الغابرين وثقافاتهم وفنونهم، كما ترك المماليك والعثمانيون، آثارهم العمرانية التي تدل على علاقة الحضارات ببعضها، وعلى تركات الشعوب وأساليب عيشها وطرائق تفكيرها.

لا بأس هنا أن نتوقف عند شكل آخر من أشكال الصدام، وأراء مثقف ليس بالغفل يتحدث عن توليد الحوار من الصدام أو تضمنه له وانبثاقه منه، إنه الفيلسوف كارل ر.بوبر، يقول: ((ومن المسلم به على نطاق واسع أن حضارتنا التي يمكن أن توصف في أبهى صورها، وإلى حد ما على سبيل الإطراء، بأنها حضارة عقلانية - إنما هي، وإلى أبعد الحدود، نتيجة للحضارة الإغريقية - الرومانية. وحتى من قبل الصدامات بين الإغريق والرومان، اكتسبت هذه الحضارة كثيراً من معالمها، من قبيل الحروف الأبجدية، من خلال الصدامات مع الحضارة اليهودية ومن خلال الصدامات الراجعة إلى موجات الغزو الجرماني والإسلامي)) (11).

ويتابع بوبر: ((ودعنا نلق نظرة عابرة على أصل الفلسفة الإغريقية والعلم الإغريقي. بدأت جميعها في المستعمرات الإغريقية: في آسيا الصغرى، وفي جنوب إيطاليا، وفي صقلية. فهذه الأماكن التي حدثت فيها المجابهة بين المستعمرين الإغريق وحضارات الشرق العظيمة، والصدام معها... ومنذ أولى التقارير عن طاليس مؤسس الفلسفة الإغريقية، يتضح بجلاء تأثير الصدام الثقافي على الفلسفة الإغريقية))(12).

إن التراث اليوناني والروماني هو أكثر ما يعتز الغرب به، ويعتبره أساساً لنهضته كما مر، أليس جميلاً من أجل حوار الحضارات أن يقر هذا الغرب أن هذا التراث شراكة إنسانية وأن الاحتكاك مع الشرق كان في أساس وجوده؟ القضية تحتاج إلى قناعات جديدة، وتغير في العقلية المتمركزة حول الذات والسائدة في الغرب، ولا يكفي كلام فيلسوف كبير مثل بوبر، على أهميته.

ليست الفسلفة الإغريقية هي التي تولدت نتيجة الاحتكاك مع الآخر، بل والعلم والمناهج العقلانية هي أيضاً وليدة هذا الاحتكاك الذي كان صدما في كثير من الأحيان. يقول بوبر: ((لقد لعب الصدام الثقافي دوراً مهماً في نشأة العلم الإغريقي - نشأة الرياضيات والفلك - ويمكن تعيين الطريقة التي جعلت بعض الصدامات الشتى ذات قطوف دانية... ويبدو من مصادرنا أن ابتداع العقلانية كان معاصراً لبعض من تلك الصدامات)) (13).

تترافق العقلانية مع الاتجاه النقدي الذي يعتز الغربيون به، ولكن بوبر يرى أن هذا الاتجاه: ((لقي حتفه في الغرب حين انقضت المسيحية المنتصرة والمتعصبة على

المدارس في آثينا، وإن كان قد بقي حياً نابضاً في المشرق العربي، كان مفقوداً متشحاً بالسواد طوال العصور الوسطى. وفي عصر النهضة لم يبتدع مجدداً بقدر ما أعيد استجلابه من الشرق، هذا بمعية اكتشاف الفلسفة الإغريقية والعلم الإغريقي)) (14). ويتابع: ((كان يصعب أن يحدث ابتداع المنهج النقدي من دون تأثير الصدام الثقافي)) (15).

إن أولى خطوات الانفراج التي تساهم في تخفيف أجواء التوتر بين الثقافات يجب أن تبدأ بمثل هذه الروح، أي بإحياء المنهج النقدي الذي يتحدث عنه بوبر باعتباره ميراث شرقي مثلما هو ميراث يوناني، وتفعيله في الحياة.

لقد نتج عن حالات الصدام بكل أنواعه ما لا تستطيع الأيام أن تمحوه، من حالات التناقض والحوار دون اجتماعات ومؤتمرات، ودون إرادوية سياسية.

عوامل تنشيط الحوار:

لا شك أنه ليس كل الاحتكاكات بين كتل بشرية حضارية سواء أكانت سلمية أم صدامية عنيفة، قد تولد عنها حوار حضاري فاعل، كل احتكاك أياً كان شكله يتضمن حوراً، لكن الحوار قد لا يرقى إلى مستوى رفيع يترك آثاره على المجموعات البشرية، أو بالأحرى قد يكون الأثر سلبياً، قد يكون تدميراً أو قتلاً وتشريداً، مما يفقده القدرة على التأثير الإيجابي المستقبلي، فيخرج من مفهوم التحضر الذي هو نزوع دائم نحو التقدم والعقلانية والتعايش المطمئن، وقد يكون الأثر الإيجابي المتروك ضعيفاً تجاه الأثر السلبي (وهو الأكثر). إذاً، يجب أن نفهم الحوار في نسبيته وظروفه ونتائجه، تحفظاً من أن يكون التعميم مقتلة للرأي أو الفكرة.

هناك صدامات لا تخضع لمقاييس التأثير الخلدونية مثلاً، حيث القوي يترك أثره على الضعيف والغالب على المغلوب. لكن أي شيء في حضارة المغول مقارنة بالحضارة العربية، يمكن أن تتركه الأولى (الغالبة) على الثانية (المغلوبة) بنتيجة الصدام. لقد قدموا إلى العراق والشام فحطموا مظاهر الحضارة حيث حلوا، وانصبت قيمهم الحضارية المتمثلة بالنار والقتل والتدمير على المظاهر الثقافية

الحضارية، تغذيها أحقاد الغازين البربرية. مثل هذا الاحتكاك الصدامي غير قادر ـكما ثبت ـ أن يولد سوى التراجع والضعف.

يبدو أن مرحلة التراجع الحضاري في الشرق كانت مرحلة انتقالية باتجاه الأدنى، والمرحلة ذاتها في الغرب كانت انتقالية باتجاه الاعلى، أي ضعف وانهيار لحضارة الشرق مقابل صعود في حضارة الغرب. (نذكر هنا برأي د.حسن حنفي) والحضارة الصاعدة لا تكون حضارة مبشرة إذا لم تأتِ بجديد يضاف إلى ما قدمته سابقاتها، وهو ما بشرت به الحضارة الأوربية الصاعدة.

لقد كان لصعود الطبقة البرجوازية ونشاطها التجاري في المرحلة المركنتيلية، وانتشار الأساطيل الأوربية في موانئ العالم، والكشوف الجغرافية التي وسعت آفاق البشرية، وأضافت إلى اليابسة المسكونة مساحات وشعوباً وحضارات وقدرات اقتصادية، لم يكن العالم القديم يعرفها، كل ذلك أضيف إلى العوامل المساعدة على إيجاد حوار أوسع بين الحضارات المعروفة أو التي ستبرز.

أضيف إلى ما تقدم الإصلاح الديني في أوربا، الذي أضاف إلى مناخات الحوار عوامل إضافية، تمثلت في اختراق الثوابت، والطرق على المصمت من العقل الإيماني المتكون تاريخياً، مما جعل الثوابت تهتز، والجرأة تزداد والإحساس أنه ليست القضايا التي صورت على أنها قدر محتوم، هي قدر فعلاً لا يمكن الفكاك منه، أولا يمكن تغييره.

ثم إن النهوض الاقتصادي أتاح للعلم مناخاً جديداً، أثبت فيه فاعليته، حيث أصبح يرفد الحياة بالجديد بشكل مستمر. هذه الأشياء الجديدة تقدم إمكانات للتواصل بين الناس، وأصبح هذا الجديد يسير حسب متوالية متسارعة لا تعرف التوقف إلى يومنا هذا .

لقد كان لظهور المطبعة مثلاً كبير أثر في انتشار الفكر والثقافة وتجارب الشعوب وهذه لم ينحصر تأثيرها في البلدان التي ظهرت فيها فسرعان ما عم انتشارها كل الشعوب والحضارات. وإذا كانت المطبعة قد تركت هذا الأثر الواسع، فكذلك البخار واستخدام قوته في المواصلات مما جعل الناس اسهل

obeikandl.com

تواصلاً، وقد كان ذلك مبشراً بما وصلت إليه البشرية اليوم من قدرة على الاتصال والاحتكاك.

القضايا المتقدمة ساهمت في إيجاد مناخ لتطور الاقتصاد، فأصبحت التجارة والتعرف على ما لدى الشعوب من المنتجات تستجيب لحب الاستطلاع والمعرفة ولتبادل المنافع والخبرات، وكل ذلك يدخل في باب حوار الحضارات.

التمدد الاستعماري

تمخضت هذه المرحلة عن أكبر صدمة عرفها تاريخ الشعوب والحضارات، وهي التمدد الغربي باتجاه شعوب العالم مستغلاً وناهباً ومخضعاً.. إلخ، وهي ما عرفت بمرحلة الاستعمار التي لا نزال تحت مفاعيلها السلبية.

لا يجوز أن ندخل هذا في باب مؤامرات الغرب علينا، وإلا كان من واجبنا وصف التمدد الحضاري العربي الإسلامي أيام الإمبراطورية الإسلامية الصاعدة بأنه تمدد تآمري، لأنهما من جنس واحد حضارياً. إنه فعل تلقائي للحضارة الأقوى، وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً، قائلين إنه ينتظم تحت ما يسمى ملء الفراغ الحضاري، على مبدأ الأواني المستطرقة، لا بد للفراغ أن يُملأ، سواء في الطبيعة أو المجتمع، وعندما تكون حضارة ما في حالة ضعف وقصور، وتجاورها حضارة في حالة قوة ونشاط، فالأمر الذي تدعمه تجارب التاريخ السابقة، أن تغطى هذا القصور قوة واندفاع الحضارة القوية الصاعدة، لكن بالتأكيد لن تكون الحالة متجذرة وأصيلة، بل قد لا تشمل سوى السطح والمظاهر.

لقد تمدد الغرب حضارياً وكانت كل قنواته مستنفرة لتقوم بهذه المهمة، فالاتنولوجيون الأوائل كانوا جنوداً ومبشرين(16). كما أن رجال الدين المسيحي في الغرب أضافوا جهودهم إلى جهود الجنود والتجار والرأسماليين والساسة في سبيل التمدد الحضاري الغربي، يذكر ادوارد سعيد أن مجتمع فيينا الكنسي المنعقد عام 1312 قرر تأسيس عدد من كراسي الأستاذية للعربية واليونانية والعبرية والسريانية في جامعات العالم المسيحي كباريس وأكسفورد وبولونيا... إلخ، وكان

حماس رجال الدين المسيحي من الآباء اليسوعيين (الجزويت) وغيرهم كبيراً لفتح أبواب الدراسة للصين(17).

لقد كان للتمدد الاستعماري أثر كبير وواضح على حوار الحضارات حيث أن هذا التمدد أتاح المجال لحوار بين حضارة الغزاة وحضارة الشعوب المستعمرة، وبالطبع لم يكن هذا الحوار متكافئاً ولا مصنفاً في صالح الشعوب الفقيرة أو في الحوار الإيجابي، لكنه بدون شك أسهم في تعرف الشعوب على ثقافات بعضها أكثر، وكان للاحتكاك أثره الإيجابي في دفع الشعوب للنهوض، كما جرى عندما احتك العرب في أوائل القرن التاسع عشر، لكن قوة وطغيان الحضارة الغربية وكونها حضارة المتغلب، ساهمت عن سوء نية أو عن غيره بطمس وتغييب عناصر ثقافية وحضارية لدى الشعوب رغبة في استبدال السائد بما يساعد الغرب الغازي على تحقيق مآربه.

لقد كانت تجارب استعمارية كبرى كاستعمار بريطانيا للهند أو استعمارها لجنوب أفريقيا أمثلة واضحة في محاولة طمس حضارات الشعوب واستبدال قيمها، لكن يبدو أن الكثير من القيم الأصيلة تكون عصية على التبدل. ولقد ساهمت فرنسا في تغيير المعالم الثقافية والفكرية لبعض مناطق الوطن العربي كما جرى في الجزائر والمغرب يورد د.محمد عابد الجابري حكاية عن القائد الفرنسي للقوات في المغرب أنه طلب المسؤول عن التعليم بعد أن قمع الثورات المناهضة للفرنسيين في الريف المغربي وقال له، لقد أخضعنا لكم الأبدان وقضينا على مقاومة الشعب فعليكم إخضاع العقول عن طريق التعليم، وهذا ما عملت عليه فرنسا مما لا تزال آثاره واضحة(18).

إن الآثار السلبية الكبيرة التي تركتها المرحلة الاستعمارية على الشعوب المستعمرة، لا تطمس ما ساهمت به من حوارات بين الحضارات المختلفة في ظروف تتسم بالقهر والغلبة، ولا شك أنه كان من الأفضل لو أن هذه الحوارات قامت في مناخ من الندية.

مظاهر سياسية واقتصادية لحوار الحضارات:

obeikandl.com

لقد تنوعت المظاهر السياسية وأشكال أنظمة الحكم تنوعاً كبيراً في إطار العصر الواحد أو بين العصور، ولقد امتدت السلطة من العائلة إلى العشيرة إلى القبيلة إلى الشعب وصولاً إلى الدولة الإمبراطورية، وكانت السلطات تقتبس تجارب الآخرين أو بعض هذه التجارب لتطوير نفسها ومواقفها وزيادة فاعليتها.

وفي تراثنا العربي ما يقدم دليلاً على حوار واضح فاعل مع أشكال ومظاهر السلطات السابقة لدى الشعوب الأخرى، ولقد قام كل من عبد الحميد الكاتب وابن المقفع في مرحلة مبكرة من تاريخ الدولة العربية الإسلامية بتعريف الحكام والمسؤولين والشعب على ما اطلعوا عليه وعرفوه من أنظمة الحكم لدى الفرس وتجاربهم في هذا المجال، ولا يزال عهد ازدشير ورسالة الصحابة يتردد ذكرهما في حقل الأدب السياسي، كما كان للآراء السياسية عند أفلاطون وأرسطو من خلال كتبهما المترجمة، دور آخر في تمكين العقل العربي أن يكون لديه آدابه السلطانية التي كتب فيها الكثير من العرب والمسلمين متأثرين بتجارب الفرس واليونان والرومان وغيرهم، وكانت بعض مظاهر التأثر تبدو في سلوك الخلفاء والقادة، المنضوين تحت راية الإسلام في هذا المجال.

وإذا كانت الخلافة نظاماً عربياً إسلامياً، فإن الساحة السياسة شهدت أشكالاً أخرى للحكم كالملك والإمارة والسلطنة وغيرها، وبعضها لم تعرفه الساحة العربية سابقاً، وكان هذا من التماذج والحوار مع حضارات أخرى.

وبعد عصر النهضة تنوعت وازدهرت مظاهر التأثر والتأثير ودخلت كل مجالات الحياة بشكل أوسع، فاستيقاظ بعض الشعوب على ما وصلت إليه أوربا من تطور علمي وتقدم تقني أثار فيها فضول اللحاق بها أو تقليدها، وكانت هناك تجربتان بارزتان للحوار مع الحضارة الغربية، هما تجربة محمد علي في مصر والتجربة اليابانية.

أما التجربة اليابانية فقد استطاعت أن تحاكي التطور الأوربي بفاعلية، وأن ينتهي الحوار بين العقل الياباني وظروف اليابان وبين الحضارة الغربية في جانبها العلمي والتقني إلى أن تحوز اليابان على ما طمحت إليه وأصبحت قادرة على مسايرة الغرب بل ومنافسته، أما التجربة العربية، فقد جند لها طاقات وجهود ودفع محمد على بكل ثقله وجهده لترسيخ الأسس العملية للنهضة، وكان طريقه إلى ذلك

الحصول على علم الغرب وتقنياته، ومحاولة تبيئتها، إلا أن التجربة أجهضت بفعل عوامل ليس هنا مكان إيرادها.

لكن هذه التجربة وإن كانت قد أجهضت إلا أنها فتحت الباب على محاولات عديدة واتصالات لم تنقطع، للتواصل مع الحضارة الغربية فكراً وعملاً، ولكن هذا الحوار غلب عليه الطابع الاستهلاكي أكثر مما غلب عليه طابع التفعيل والتبيئة كما حدث في اليابان مما أبقى تجاربنا العملية مجهضة.

ومن مظاهر الانفتاح على الغرب والحوار معه ومع ثقافته، دعوة أبرز أعلام النهضة العربية والإسلامية من أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وغيرهم، لا إلى تقليد الغرب في صنائعه وعلمه فقط، بل إلى تحطيم السد بين الإسلام والفلسفة (الأفغاني) والانفتاح على عالمية الفكر الإنساني (عبده) (19). ومعروف أن كلا الرجلين ينتمي إلى الحقل الديني، مما يعطي لدعواتهما بعداً أكبر.

وقد كان من نتائج اتصال العرب بالغرب عن طريق البعثات وأشهر رموزها مثل: رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك وخير الدين التونسي والشدياق وكثير غيرهم، هو الذي دفع أفكاراً في السياسة وغيرها إلى الواجهة مثل: إلزامية التعليم، تحرير المرأة، الفصل بين السلطات تبني الحكومات الدستورية، الحرية الشخصية والسياسية(الديمقراطية)، المواطنة، المساواة، العلم الحديث... وغيرها(20).

الفكر السياسي الغربي وتجاربه يخترقان الحدود:

بلغت سطوة التجارب السياسية الغربية والفكر الناظم لها، أن تكون كونية الانتشار وأن تلغي تلك الأشكال المحلية التي ابتكرتها شعوب أخرى انطلاقاً من واقعها وظروف حياتها، حتى أصبحت تجارب الشعوب الخاصة مما ينتمي إلى عالم التراث والفلكلور لأن قوة البدائل الغربية جعلتها تبدو هزيلة وكاريكاتورية، فلم تعد شعوب أفريقيا وآسيا أو الشعوب الإسلامية، تتجرأ أو تفكر في أن تنتمي إلى حيزها التاريخي أو تحيي تجاربها السابقة، أو تطور شكلاً جديداً يلائم ظروفها،

وما لم يفرض عن طريق الاحتكاك والتقليد والاقتباس. ويبدو أن الدور قد جاء لفرضه بالقوة كما يحدث في العراق، علماً أن تجربة هذا البلد لا تنتمي إلى التراث.

لقد بدأت الشعوب ترى أن النجاح الذي حققه الغرب هو سفنية النجاة، وباعتبار أن من يريد دخول العصر فطريقه يمر عبر الحياة في الغرب وتقليده واقتباس أفكاره بالإضافة إلى أن القوى الاستعمارية التي سيطرت على بلداننا لم تخرج إلا وتركت ورائها أشكالاً من السلطات تشبه في شكلها أو هيكليتها بعض النماذج الغربية.

لقد وصلت إلى حد انقسم فيه العالم إلى عالمين أو معسكرين، وكلاهما غربي الفكر والنموذج. فقد كانت استمرارية البرجوازية ومدرستها السياسية التي تلتزم الليبرالية الديمقراطية هو النموذج الغربي الذي تطور عن مرحلة الإقطاع مع تطور ونمو المجتمعات الغربية على يد برجوازيتها، وقد وجد من يقلده في كل مناطق العالم، بل أصبح الدخول إلى العصر يعني الدخول في الفضاء السياسي الليبرالي، أي فضاء الغرب مما دفع مفكراً كشارل مالك إلى الدعوة للدخول في حذاء الغرب.

وإذا كان حوار العالم على اختلاف شعوبه مع الحضارة الغربية هو الذي عمم تجربة الديمقراطية الليبرالية في مناحي كثيرة من العالم، فإن تمرداً غربياً على هذه التجربة، دفع الكثير من الشعوب إلى تقليده، أي إنه شكل حالة ثانية مع شعوب العالم دفعتها إلى استلهام تجربة غربية جديدة نابعة عن فكر غربي جديد.

لقد كانت الماركسية كفكر وجد طريقه إلى التطبيق العملي، فقامت دول في الغرب على استلهام هذا الفكر المتمرد على قيم الاستغلال والظلم، ابتداء بقيام الاتحاد السوفييتي، مما دفع القوى التي تستشعر الظلم والاستغلال، سواء من القوى الداخلية في بلدانها أو من قوى استعمارية خارجية إلى التفكير بأن الخلاص قادم على يد الفكر الجديد وأسلوب الحكم والإدارة الجديدة. ولا ننسى ما أدت إليه المواجهة من حرب باردة، كان الحوار فيها مجهداً للبشرية حتى في قلب الولايات المتحدة، بعدما وضعت المكارثية الكثير من فعالياتها في قفص الاتهام.

لقد انتشر الفكر وأسلوب الإدارة المنطلق من محاكاة ما جرى في الاتحاد السوفييتي، في كثير من دول العالم على امتداد قاراته، ولا تزال بعض هذه

التجارب تثبت جدارتها على البقاء والاستمرار. وهذه التجارب هي في الفكر والممارسة غربية المنشأ، بعيدة أحياناً عن البيئات التي طبقت فيها، وكان ذلك ناتجاً عن حوار مع تجارب سياسية وفكر سياسي جديد وواعد، غربي الطابع، عالمي الانتشار كسابقته الديمقراطية الليبرالية.

يبدو أن الحوار لم ينته وأن في جعبة الغرب الكثير مما يعممه، ولدى الشعوب القدرة على الاستماع والتلقي والقدرة على التقليد،كل ذلك أو أكثره نتاج الحوارات التي لم تعد تجد حدوداً وموانع بين الحضارات وتجارب الشعوب.

هذا ما دفع فوكوياما إلى اعتبار الديمقراطية الليبرالية نهاية التاريخ، والغاية التي ليست بعدها غاية لشعوب العالم أجمع إذا أرادت أن تكون حية وفاعلة فيما سيأتي من الزمن. ويبدو أن الفكرة نجحت في الانتشار والتسويق، وهناك تسابق محموم بين المفكرين والشعوب والحكومات في التغني بفضائل الديمقراطية الغربية والمواطنة والمجتمع المدني والفصل بين السلطات إلى آخر هذه المصفوفة.

أليست هذه مؤشرات على الحوار بين الحضارات؟ وهي حوارات تتفرج عن غالب ومغلوب، ويبدو أن المغلوب كل ما هو محلي أو ينتمي إلى البيئات التقليدية وإلى التراث والقيم القديمة، وأن الغالب هو ما ينتمي إلى حيز القوة والجبروت وتكنولوجيا الدمار، ومن لم يفهم الدرس جيداً فطائرات الشبح وصواريخ توما هوك تستطع إفهامه، في أكبر انحراف عن منطق الحوار وأخلاقياته وقيمه.

باستمرار كنا نود أن نتخلص من هذه الطريقة في تنصيب الحكام، وهي ممتدة في تاريخنا من يوم قال قائل: خليفة المؤمنين هذا وأشار إلى معاوية، وإن مات فهذا وأشار إلى يزيد ومن أبى فهذا وأمسك بقبضة سيفه، لكن بجهدنا لا بدبابات الغزاة. لكن يبدو أن قدرنا أن نواجه، إما الطغاة المستبدين، أوجحافل الاحتلال.

العولمة والحوار المفتوح:

كانت الحوارات الساخنة والباردة ممتدة على مدى التاريخ، وهي وإن مرت بمراحل من الضعف لم تنقطع أو تتوقف، لكنها لم تصل، أو لم تكن قادرة على أن تصل إلى هذا المستوى الذي وصلته اليوم، بفعل التقنيات الحديثة، والسيطرة

على الفضاء الكوني وتسخيره في عملية الاتصال، وهذا التسخير أو عملية الاتصال هذه لا تخص الاقتصاد أو الفكر أو السياسية فقط، إنها تخص كل جوانب الحياة البشرية، مما يؤدي إلى تواصل وحوار بين الناس إلى أي حضارة انتموا، فالطباخون في كل بلد من بلدان العالم يحضرون الأطباق على شاشات الفضائيات، ومصممو الأزياء يقدمون مبتكراتهم على هذه الشاشات، وأرباب الفكر يطرحون أفكارهم ويتحاورن عليها أيضاً، وأرباب الصناعات يبهرون أعين المشاهدين كل ثانية بما أنتجته مصانعهم من الطائرة والصاروخ حتى نكاشة الأسنان ودبابيس الورق، ومظاهر الشخصيات الرسمية، وأشكال تعاطيهم مع شؤون الحياة لا تختلف بين بلد وآخر، والمرأة تسخر لها أكفأ المهارات ورؤوس الأموال والمعدات التي تجعلها تبدو كل ساعة بلون، مطلية بكل وأخبث ما ابتكرته البشرية من دهانات، ومحملة بأعقد الإكسسوارات والشخاليل، لا فرق بين غربية وشرقية، في أفريقيا أو أمريكا اللاتينية!

وما لم توصله الفضائيات يصلنا عبر الانترنت وغيرها من الأساليب، المهم أن الإنسان لم يعد يغيب عن شيء يجري في العالم إلا تطور القيم الإنسانية الرفيعة. هل نريد أكثر من هذا تواصلاً أو حواراً بين الحضارات؟ كل شيء معمم من أنظمة الحكم حتى الدعايات والنشرات الجوية، وليس هناك من يدعو إلى خلاف ما يدعو له الآخر، لم تعد هناك نغمتان، لقد توصلت البشرية إلى توحيد نغماتها وتخلصت من النشاز. كل ذلك بفضل العولمة وشركاتها متعدية الجنسية. لكن لنشهد لها أنها كما استطاعت أن تخلق منظمة التجارة العالمية، وأن تضع في خدمتها صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، وأن تخلق أوسع حوارات بين أرباب المال لاستغلال البشر، فإنها خلقت تجمعات مناهضة لذلك، تتواجد حيث تتواجد تجمعات النهب العالمي، وأصبح الرد على ملتقى دافوس بملتقى بورتو الليجري في جنوب البرازيل. أي أن رأس المال الذي أوجد منابره التي يتحاور فيها الرأسماليون من كل الحضارات والشعوب، فكذلك النضال من أجل الإنسان أوجد منابره التي يتحاور فيها أبناء الحضارات للحفاظ على هذه الحضارات، عبر آلاف المنظمات غير الحكومية التي تقود النضال ضد استغلال العولمة. عصر العولمة لا يتكلم فيه الإنسان، بل تتكلم

التقنيات ورأس المال فتصنع العالم على مقاسها. أصبحت السمعة الحسنة أو السيئة للحكومات والشعوب والجماعات وحتى الأفراد. تصنّع من قبل دوائر معينة، فيتأبلس البعض، ويتم تجميل صور البعض بطرق مفبركة. يقول بيتر فان هام:((أيا منا هذه يقوم كل من الأفراد والمؤسسات والمدن والأقاليم والدول والقارات على حد سواء بتسويق أنفسهم باحتراف وبطرق تقنية مغامرة في كثير من الأحيان.

وبالفعل، أصبح اكتساب سمعة سيئة أو الافتقار إلى أي سمعة تذكر يشكلان عائقاً خطيراً أمام سعي الدول المنافسة على الساحة الدولية. فالدولة التي تفتقد إلى الميسم Brand تجد صعوبة في اكتساب الاهتمام السياسي والاقتصادي))(21).

ويتابع فان هام: ((وبهذا أصبح الانطباع والسمعة عاملين أساسيين في الوزن الاستراتجي للدولة. وكما هو حال المنتجات ذات العلامة التجارية، تعتمد الدولة ذات العلامة التجارية على الثقة وإشباع المستهلك وأصبحنا نتكلم عن شخصية الدولة كما ندرس المنتجات التي نستهلكها، فنصنفها بأنها ((ودودة)) (أي لها توجه غربي) و((موثوقة)) ((أي حليفة))، و((عدوانية)) (أي توسعيه) و((غير جديرة بالثقة)) أي (شاذة))(22). واضح أن الإشارة توحي بتغير وتبدل أشكال الحوار وفاعليته، بحيث أصبحت ماركة معينة أو علامة تجارية معينة من شأنها أن تترك انطباعاً وتشيع مناخاً لا تشيعه أفكار المفكرين وأقلام الكتاب وحوارات الساسة.

والواضح أيضاً أن القيم والسعي لتكريسها، والقدرة أو التوجه إلى مساعدة البشرية وإنقاذها في حالات الشدة، وإضافة كل ما هو جميل إلى حياة الناس وتراثهم وخبراتهم لم تعد هي الأسس التي تنهض عليها سمعة الحضارات، كما أن الفلسفات والعلوم والفنون بكل أنواعها قد اختفت عن الساحة لتظهر العلامة التجارية أو القدرة على تسويق المنتجات وإثبات الفعالية التجارية الفذة كمقوم أساسي لشخصية دولة / أمة وتحديد مكانتها، ويتابع فان هام: ((هذا التفضيل للمظهر على الجوهر أصبح يلعب دوراً أكبر في صياغة التضاريس السياسية الأوربية، ويفرض تأثيره حتى على مستوى حلف الناتو والاتحاد الأوربي. وعلى الرغم

من أن هذا مقلق بلا شك للمفكرين المحافظين، فهو في الواقع تطور إيجابي، لأن طبع الدول بطابع العلامات التجارية أخذ يحل محل القومية))(23).

وزيادة في التأكيد على الأسس التي تعتمد في العصر الحاضر لبناء السمعة واستجلاب الإطراء والوصف بالتحضر، أي لإيجاد مكانة بين الأمم المتقدمة كبديل للقيم والأسس التقليدية، يقول فان هام: ((في العصر الدنيوي الحالي، أصبحت العلاقة التجارية طرازاً من البديل للإيمان، ويذهب بيتر بورك ـ المستشار الإداري البريطاني ـ إلى حد القول إن شعار شركة نايكي يمثل تماماً ما كان الإيمان والروحانية يمثلانه للأجيال الماضية في الحواري الفقيرة ـ سبيلاً للهروب من مشاق الحياة.))(24). وتؤيد د. نجاح كاظم ما ذهب إليه فان هام من تأثير العلامة التجارية، تأكيداً على دور الاقتصاد والتبادل التجاري والسلعي في صنع العلاقات بين الشعوب، بحيث أصبحت العالمية لها طرقها وأساليبها التي تطغى على الثقافة وتفرض نفسها عليها دون تخطيط أو استئذان، تقول كاظم : ((والأهم أن الإبداع والاختراع مرتبطان أكثر مع العولمة وامتزاج اختصاصات عدة وذات علاقة بالجانب التجاري ومتطلبات السوق، الأمر الذي أدى إلى بروز أهمية الماركة المسجلة (Brand) أكثر من أي فترة سبقت. وحسب إحصاء الفانينشال تايمز فإن الفلاحين على معرفة بالعلامة التجارية لكوكا كولا أكثر من رئيس الولايات المتحدة، وكذا الأمر في الماركات المسجلة لكومبيوتر مايكروسوفت أو أجهزة سوني لمعظم الطبقات الوسطى في بلدان العالم النامي))(25).

لا شك أن الكلام السابق لا ينسجم مع آراء هنتنجتون الذي يقول: ((إن الصلة بين الثقافة والإقليمية واضحة جداً فيما يتعلق بالتكامل الاقتصادي))(26). وليس التفنيد السابق هو الذي يرد على هنتنجتون بل يرد عليه الواقع، وخير مثال على الواقع هذا، هو العالم العربي والإسلامي. وهو الذي أشار كما رأينا إلى أن الصراعات لن تكون بين غني وفقير بل بين شعوب تنتمي إلى كيانات ثقافية مختلفة(27).

إن الحروب بين الديمقراطيات ليست بالضرورة حروب صواريخ ومدافع، لذا لا نستطيع الركون إلى قوله: (الدول الديمقراطية بينها أشياء مشتركة مع الدول الديمقراطية الأخرى ومن ثم لا يحارب بعضهم بعضاً) (28). لأن بعض الأشياء

المشتركة لا تمنع وجود ما يختلف عليه، من مصالح متناحرة، تصنع الحروب ذات الضرر الأكبر دون أن تشارك فيها الدبابات، إنها حروب الأسواق والاعلام.

المنظمات الدولية والحوار:

إن تشابك المصالح والعلاقات الدولية، التي لم يعد ينفع معها شكل العلاقات الثنائية فقط، لأن حاجات البشرية لضمان أمنها وسلامها، ولتعيش حياة أكثر طمأنينة، تحتاج تنظيم نفسها في أشكال تؤمن التواصل من كافة الجوانب، فكانت هناك المنظمات الثقافية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو العامة، وكل هذه الأشكال التجمعية تحتاج إلى الإطار السياسي، مما جعلها أقرب إلى السياسة، إضافة إلى منظمات تعنى بمشاكل قطاعية كمنظمة التجارة العالمية. يأتي على رأس هذه المنظمات، هيئة الأمم المتحدة التي ورثت عصبة الأمم، وهذه منظمة متشعبة تعمل على تأمين حياة إنسانية أفضل من خلال حوارات الدول والشعوب والحضارات. إذاً، هي هيئة حوارية للحضارات بكل معنى الكلمة تهتم بالثقافة عن طريق اليونسكو، وبالطفولة عن طريق اليونيسيف، وبقطاعات أخرى عن طريق منظمات فرعية متخصصة. وقد ساهمت في أن يتعرف العالم بشكل أفضل على مشاكله أينما وجدت وعلى سبل حلها معتمدة على الإطار السياسي بالتمثيل الدولي فيها. هناك منظمات دولية قطاعية أخرى، كمجموعة الدول الثماني الأكثر تصنيعاً، وكمجموعة السبعة والسبعين، ومجموعة دول عدم الانحياز، وكالوحدة الإفريقية وجامعة الدول العربية، والمؤتمر الإسلامي، ومنظمة دول جنوب شرق آسيا(آسيان). بعض هذه التجمعات والتنظيمات متخصص والبعض عام، كما أن المنظمات الرياضية والفنية تشكل جزءاً من اللوحة. وكل هذه المنظمات تسعى لإيجاد حوارات في مجالها بين الجهات التي تتمثل فيها، وربما خارج هذه الجهات، مما يغني أفق هؤلاء وأفق الحوار ويزيد التعرف على البشرية وهمومها ومشاكلها وقناعاتها وتوجهاتها، ويساهم في صناعة أطر حل بعض هذه المشاكل.

من بين هذه المنظمات تبرز منظمة دول الكومنولث البريطاني والفرانكوفيونيه، كمنظمتين تهتمان بإبقاء وتلميع مكانة الدولة الأم (بريطانيا

obeikandi.com

وفرنسا) كامبراطوريتين سابقتين، لغاتهما أكثر اللغات العالمية انتشاراً، وثقافة الغرب تعممت عن طريقهما أولاً. إنهما تبحثان عن مكانة لا تغيب، أو تحافظان على وجود تغيرت فيه الأقطاب، وللتأكيد على الحضور الفاعل عن طريق تنسيق السياسات على أساس ثقافي لغوي، مما يساهم بتنشيط الحوار بين دول تنتمي إلى حضارات متعددة يجمعها الانضواء تحت علم استعماري واحد مع دولة المركز، التي كانت تحكم هذه البلدان في يوم من الأيام. وتعريفاً بنشاطات هذه المنظمات أكثر، وبيان دورها، نشير إلى أن الفرانكونونية عقدت مؤتمراً في بيروت في العام 2001/ تحت شعار ((حوار الحضارات)) وهذه تعد بادرة طيبه ولو إعلامياً، علماً أن المنظمة ذات إطار سياسي تتمثل فيها الأطراف عن طريق الحكومات. لهذه المنظمة هيئات ومؤسسات تابعة لها، تعمل على تطبيق القرارات التي تضعها مؤتمراتها وسياساتها، وتحدد لنفسها أهدافاً جميعها تستبعد الصدام وتسعى لتكريس العمل السلمي الحواري والثقافي كإطار للعلاقة بين الشعوب، وهذه الأهداف:

1 - خدمة السلام. 2 - خدمة الديمقراطية.

3 - حقوق الإنسان. 4 - التعليم حيث تسهم المنظمة في خدمة جميع مراحل التعليم. 5 - الاقتصاد والتنمية. 6 - التنوع الثقافي.

وكان أبرز القضايا التي أثيرت في ندوة الفرانكوفونية والعالم العربي(حوار للثقافات) في معهد العالم العربي 30 -2000/6/31 موضوع اللغة الفرنسية في العالم الفرانكوفوني، وكانت المحصلة التي توقفت عندها الندوة، أن الفرانكوفونية تعد نقيضاً لعالم القطب الواحد. وفي ندوات أخرى كان تركيزها على ثقافة السلام وتعزيزها والحوار بين الحضارات. ومع أن الفرانكوفونية كما يرى محمد سيد أحمد في بحث (الفرانكوفونية في لبنان) أريد منها أن تشكل نوعاً من الكومنولث في مواجهة الكومنولث البريطاني أو الروسي، إلا أنها في نظر فرناند برودل تهدف إلى أن تحافظ فرنسا على مركزها بين الدول الكبرى بفضل اللغة الفرنسية(29).ما يهمنا من كل هذه المنظمات والتوقف عندها، هو ماتسهم به من حوارات في موضوعات شتى بين جهات تنتمي إلى حضارات وخصوصيات عدة، تؤطرها السياسة ضمن العلاقات الاستعمارية السابقة ربما. هناك آراء منتشرة

خاصة لدى الإسلاميين ترى أن الفارق بين الأمركة والفرنسة أن الأولى تعتمد القوة والسلاح للهيمنة على مقدرات الشعوب، في حين تعتمد الثانية على سلاح الكلمة والفكرة والثقافة، فهما تختلفان في الأسلوب وتتفقان في الهدف. وهنا يمكن أن نلمح الجانب الصدامي الذي يبغي السيطرة، بالتالي سيكون من العسير التفريق بين الصدام والحوار في لقاء هذه الحضارات، طالما أن الأسلوب المعتمد ليس العنف المادي، إذ كلا الأمرين يتضمن الآخر وينطوي عليه ويرعاه، فتبدو الغاية والوسيلة في حال من الانسجام تكمل إحداهما الأخرى.

obeikandl.com

هوامش الفصل الثاني

1 - ول. ديورانت، قصة الحضارة، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، ترجمة: محمد بدران، مج3 ج1 ط2 /1972 ص56

2 - تيري ايجلتون، فكرة الثقافة، ترجمة: ثائر ديب، دار الحوار للنشر والتوزيع ـ اللاذقية، بدون رقم الطبعة وسنة النشر، ص.31

3 - د. أمين اسبر، الحوار والحضارة العربية الإسلامية، مرجع سابق، ص133

4 - علي محمد اسبر، فلسفة العالم الدنيوي، النهج /33/ شتاء /2003 ص63– 64.

5 ـ المرجع السابق ص65-67

6 - راجع، خليل عبد الكريم، شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة، ثلاثة أجزاء، مرجع ذكر سابقاً،

7 - ادريس هاني، حوار الحضارات، المركز الثقافي العربي ط1/2002ص171

8 - د.كمال عبد اللطيف، في تشريح أصول الاستبداد ـ قراءة في نظام الآداب السلطانية، دار الطليعة للطباعة والنشر ـ بيروت، ط1 /1999 ص57.

9 - راجع، د.محمد عابد الجابري، العقل الأخلاقي العربي ـ دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية، في سلسلة: نقد العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1 ـ بيروت آذار /مارس/2001

10 - د.كمال عبد اللطيف، المرجع السابق.

11 - كارل ربوبر، اسطورة الإطار، مرجع سابق، ص65

12 - المرجع السابق ص65

13 - المرجع السابق ص67

14 - المرجع السابق ص70

obeikandi.com

15 - المرجع السابق ص70

16 - محمد الخطيب، الاتنولوجيا، دار علاء الدين، ط1/2001 ص26

17 - د.ادوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، طبعة عربية ثانية، /1984

18 - د.محمد عابد الجابري، المسألة الثقافية، سلسلة الثقافة القومية /25/ قضايا الفكر العربي /1/ مركز دراسات الوحدة العربية ط1 تشرين الثاني /1994/ ص189

19 - د.ماهر الشريف، رهانات النهضة في الفكر العربي، دار المدى للثقافة والنشر، ط1 /2001 ص108 - 113

20 - المرجع السابق ص35 وما بعد.

21 - بيتر فان هام، صعود الدولة ذات العلامة التجارية ـ سياسة ما بعد الحداثة للمظهر والسمعة، ترجمة: جعفر جميل أبو ناصر، الثقافة العالمية، السنة /22/ العدد /116/ يناير ـ فبراير /2003/ص101

22 - المرجع السابق، ص101 – 102

23 - المرجع السابق ص102

24 - المرجع السابق ص102

25 - د.نجاح كاظم، العرب وعصر العولمة ـ المعلومات : البعد الخامس، المركز الثقافي العربي ـ ط1 /2002/ ص108

26 - صامويل هنتنجتون، صدام الحضارات، مرجع سابق، ص213

27 - المرجع السابق ص46

28 - المرجع السابق ص57

29 - تم الاعتماد على بحث بعنوان ((المنظمة الدولية للفرانكوفونية ـ من الثقافة إلى السياسة))أعده: علي البلاونة ونشرته جريدة المجد 2002/12/10

❖❖❖

obeikandl.com